مدوّنة : شجرة أبي..

قضى الدكتور ياسر حلمى عبد الباقى عشرة أيام كاملة فى إجازة مرحة بمنتجع شرم الشيخ مع زوجته ريم الشرقاوى وابنته حليمة ذات الثلاث سنوات.

وظلت خميسة فى انتظار عودتهم وهى فى شوق بالغ لحفيدتها. وفى الليلة الأولى من وصولهم استسلموا للسهر والمرح إلى وقت متأخر من الليل.

وفى الصباح وعلى مائدة الفطور سرح ياسر ببصره بعيدًا وهو مأخوذ بالشرود، ثم ألقى نحو أمه بابتسامة مريرة ففهمت أن ولدها لديه شىء سيرويه:

ـ «قابلتهما هناك.. صورتان كبيرتان تحتلان مكانًا بارزًا فى مواجهة القادمين إلى شرم الشيخ عبر المطار.. الأولى للرئيس مكتوب أسفلها نعمة الحاضر، والثانية لولده جمال مكتوب أسفلها نعمة المستقبل.. أتدرين من الذى أقام هاتين الصورتين على نفقته هناك؟»

ردت خميسة على الفور:

ـ «السيد النحال طبعًا..»

ـ « مضبوط.. تصورى؟»

ـ « وما الجديد فى ذلك يا ولدى؟ إنها مهمته..»

ـ «تقصدين مهمته الجديدة لتوريث الحكم»

ـ «لا.. إنها مهمته الدائمة كقواد سياسى»

ـ «وهو طبعًا يراهن من الآن على كسب الرئيس القادم»

ـ «ولم لا تقول إن الرؤساء هم الذين يراهنون على كسبه هو؟ أليس هو الذى يفتح الباب لجموع النحالين خلفه لإطلاق المبايعة لكل ولاية رئاسية جديدة، ويتولى إنجاح

ذلك فى كلّ مرة؟..»

ـ «ولكن الحديث صار معلنًا حول اتجاه ابن الرئيس فى التخلص من الحرس القديم ليستبدلهم بشباب من لجنة السياسات»

قالت خميسة فى يأس وقرف:

ـ «ديكور.. وإعادة طلاء لشقة حل بها ساكن جديد.. هل الطلاء يغير من جوهر الشقة شيئًا؟»

* * *

وفى زيارتها الدورية لولدها المهندس يسرى وعلى مائدة الفطور فى الصباح كانت الجدة خميسة تضم حفيدها ماجد إلى صدرها وعلى فمها ابتسامة، ثم سألت ولدها بصوت خفيض:

ـ «عندما كان وزير الإسكان يتحدث فى التليفزيون ليلة أمس.. حاولت أن تعلق بشىء ما، ثم «قطمت» الكلام فجأة لماذا؟»

أشار يسرى بطرف خفى إلى طفله ماجد، أسرعت الجدة خميسة بإطلاق الطفل من حضنها، وكلفته بإحضار نظارتها من غرفة النوم، وما إن أسرع الحفيد بالذهاب حتى تحدث الأب بحريته:

ـ «ماجد ولدى هذا مثل حليمة ابنة أخى ياسر لا يكفان عن طرح الأسئلة.. جيل يعشق التساؤل وتفحص كلّ شىء بملل، فإذا سمعنى أحكى لك عن هذا الوزير الذى لم يجد وسيلة لتأنيب إحدى موظفاته أمام جمع من الناس إلا بأن فتح لها سوستة بنطلونه.. لو سألنى ماجد عن معنى هذه الحركة السافلة فبماذا أجيبه؟»

ابتسمت خميسة بمرارة وغمغمت:

ـ «السفالة.. لها تاريخ معروف، وجغرافيا أيضًا..»

تساءل يسرى:

ـ «هل تقصدين يا أمى أنه نشأ فى بيئة فقيرة..؟»

قالت خميسة:

ـ «لا.. لا.. أغلبنا نشأ فى أوساط فقيرة. ومثل هذا الرجل يشير إلى أنه ترعرع فى بيئة منحطة.. والانحطاط هنا لاعلاقة له بالفقر والغنى.. فكم من منحط يسكن قصرًا..»

قالت هذا وهى تتذكر كل الرجال الذين أحاطوا بولدىْ النحال: طليقها السيد، وشقيقه أمير، وكيف نزل الإقطاعى القديم فايز فودة من علیائه ليصبح تابعًا من أتباع السيد النحال فى هوجة الانفتاح.. ثم كيف ارتقى مختار عبد العليم ـ مكتشف أمير النحال ـ سلم المناصب العليا حتى صار محافظًا، ولسبب ما، وعلى غير العادة أسلمه النظام الذى كان خادمًا له للضياع إثر قضية رشوة كبرى أسلمته للسجن المشدد.

وما تعرفه خميسة عن مختار أنه ينحدر من بيت طيب وأب حسن السمعة. إذن.. كيف طاله الفساد؟.. ولماذا تمادى فيه؟ هل هى لغة العصر، عصره هو، وليس عصر أبيه؟..

ومع نهاية تأملاتها العابرة أنهت رأيها إلى يسرى بهذا القول:

ـ «.. وأغلب الظن يا ولدى أن التمسك بالأخلاق الفاضلة من عدمه هو عملية استعداد».

* * *

وكانوا جميعًا فى ضيافتها عندما تطرق بهم الحديث إلى نادية عز الدين وولديها حسن رأفت، ومعاذ فريد، اللذين أسماهما ياسر: «فرعنا الذى فى البلد»

تحدثوا عن حسن رأفت الذى التحق بكلية الطب فتمنت خميسة أن يلحق به أخوه معاذ فريد فى نفس الكلية بعد عامين، ثم راحت توصى ولديها بدعم ميزانية صديقتها نادية بما يتناسب مع مسئولياتها الجديدة.

ثم أرسلت سؤالها المعتاد:

ـ «وما هى آخر الأخبار التى أتى بها حسن من البلد؟ ما هو الجديد الذى كتبه فى مدونته؟»

وسرعان ما قفزت أمامهم صورة هذا الشاب الجامعى الذى لا يكف عن السخرية وإطلاق الدعابات وبث المرح حوله أينما ذهب، فلاحت على وجوههم ابتسامة قبل أن يروى لهم ياسر شيئًا عنه.. وكان ما رواه ياسر نقلًا عن حسن هو ما يتردد فى البلد حول

مصنع السكر.. فالمصنع معروض للبيع فى نطاق الخصخصة.. وهذا أمر عادى صار لا يلفت أنظار الناس بما فيهم العمال الذين يعملون فى المصانع والشركات المخصخصة.. أما الأمر غير العادى، فهو أن المتقدم لشراء مصنع السكر هو السيد النحال نفسه، وقد سرت حول هذه الصفقة شائعات كثيرة منها أن النائب المخضرم يتستر خلف مستثمرين أجانب قد يكونون من رجال الأعمال الأمريكان، وفى هذه الحالة لا مانع أن يكونوا من اليهود.

ومن هذه الشائعات أن العكس هو الصحيح، فهؤلاء المستثمرون هم الذين يتسترون خلف السيد النحال. أما الأهم من كلّ هذا وذاك أن الاتجاه الذى يفرض نفسه على بنود الصفقة هو الاستغناء عن عدد كبير من العمال والموظفين.. ناهيك عن أن كيلو السكر سوف يباع بضعف ثمنه.

هذا هو الخبر، وما يحيطه من تحاليل واشتاق الحضور إلى معرفة وقع هذا الخبر عند حسن رأفت إبراهيم: كيف تلقاه؟.. وكيف تعامل معه فى مدونته المشاغبة فى جهاز الكمبيوتر كشأنه فى التعامل مع أىّ أخبار مماثلة خاصة ما يتعلق منها بأبناء النحال..

ففى مدونته المقروءة تحت عنوان «شجرة أبى» كتب قائلًا:

ـ «عندما أراد السيد النحال أن يضع الناخبين فى جيبه أنشأ لأبناء دائرته مصنعًا للسكر، وعندما وضع النظام فى جيبة أخذ المصنع لنفسه»

وتعقيبًا على ذلك طرح بعض أسئلته على القارئ:

ـ «هل يمكنكم قياس مساحة الجيوب التى يملكها النائب المخضرم السيد النحال؟»

ـ «يقولون إنها جيوب تتسع للمكاسب الصغيرة «أربعون ألفًا تضمن بها مكانًا لولدك فى كلية الشرطة أو الكلية الحربية» والمكاسب الكبيرة «مليونا جنيه تضمن بهما مقعدًا فى مجلس الشعب»

وصارت مدونة «شجرة أبى» كما قالت عنها خميسة نافذة تتيح للأجيال الجديدة منظورًا من الرؤية يطلون منها على ماضٍ مسكوت عنه، ورسم لصراع دار بين أشرار وأخيار فى ربع القرن الأخير.. فالمدونة تقدم خدمة جليلة لقرائها بنقل فقرات كاملة من خطب الشيخ فريد هنيدى ضد نظامى السادات وحسنى مبارك.. وفقرات بعينها من

مقالات الكاتب الثائر: حلمى عبد الباقى.

فعن الأفعال اللاأخلاقية التى يقدمها أصحابها باسم المصلحة العامة دوّن حسن رأفت ما كتبه حلمى عبد الباقى حول ذلك ضاربًا المثل باتفاقية كامب ديفيد « فهى فعل لا أخلاقى معلن لا يقل عن الفعل اللاأخلاقى غير المعلن الذى قام به رئيس السودان الأسبق جعفر نميرى بالحصول على رشوة لتهريب يهود الفلاشا إلى إسرائيل ورشوة أخرى لدفن النفايات الذرية فى صحراء بلاده».

وفى تعليقه الخاص على هذه العبارات المنقولة من مقالات حلمى عبد الباقى يبدى الشاب حسن رأفت رأيه قائلًا:

ـ « ولأن كلا الرئيسين السادات ونميرى لم يؤاخذا على ما فعلاه، فإن كل الأفعال اللاأخلاقية صارت تنهمر وتمر مرور الكرام مثل مرور عشرات السفن الحاملة للحوم الفاسدة بأمر وزير التموين أمير النحال.. ابن مصر البار»

قالوا لحسن : «كن مسالمًا مثل أبيك»

فقال لهم معاذ: **«أتمناه صورة من أبى، اتركوه واتركونى معه..»**

وما لم تقله خميسة لولديها عقب الموت الغامض لأبيهما هو أنها آثرت السلم عندما زارها رجال غامضون وانفردوا بها خلف باب مغلق لمدة تزيد عن الساعة، وكان خروجهم هو بداية صمتها الذى بدا أنه سيكون أبديًا.. لكنهما تذكرا ما قالته لهما باقتضاب:

ـ «لقد نالوا من أبيكما عندما فضحهم.. وما أسهل أن ينالوا منكما إذا حاولت أنا فضحهم»

فهل ستكون مدونة «شجرة أبى» بداية النهاية لولدى نادية..؟

فكم من مرة هتفت خميسة بولديها:

ـ «ياسر.. يسرى.. أرجوكما.. اكبحا جماح حسن ومعاذ، فلا شىء قد تغير حتى تضمن لهما الأمان»